العرفان الإسلاميّ بين شرط الكمال وهدفيّة التّكامل -نحو عرفان عمليّ من منظار مدرسة أهـل البيت عليهم السلام-

الدكتور عبد الفضيل ادراوي[1]

خلاصة المقالة:

تدافع هذه المساهمة المتواضعة عن وجهة نظرٍ مؤدّاها أنّ العرفان في المدرسة الإسلاميّة، وتحديدًا في مدرسة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، يحوز قيمته من غاياته أو من هدفيّة التكامل فيه، بوصفها حالة تربويّة تخليقيّة تخلّقية يجب أن تتحكّم في الفرد والمجتمع معًا، سيرًا نحو تحقيق الحكومة الإلهيّة الموعودة، لتجسيد العدالة بمفهومها الشامل.

وبالنظر إلى أنّ جوهر العرفان وحقيقته إنّما هو ابتغاء تحصيل تكامل روحيّ معنويّ تتهذّب فيه النفس، وتتجاوز الذات العرفانيّة فيه إنّيتَها وأَنانيّتَها وصَنَميّتها (الهجرة من النفس إلى الله)، وهذا لا يتحقّق إلا بشرط الكمال؛ بوصفه شرطًا توجيهيًّا. فمن جهة يتوجّب أن يستند العرفان في مفهومه ومعارفه وتفاصيله الدقيقة، وفي طرق تنزيله وتحقيقه ممارسةً عمليّةً في حياة صاحبه، إلى العقيدة المحمّديّة الأصيلة، ممثّلة في مدرسة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، بما هم الصراط المستقيم وعنوان الطهر والكمال الحقيقيّ، وبوصفهم خزّان العلم، وأبواب مدينته، ومرشدي البشريّة بنصّ الوحي. هذا الشرط من شأنه أنْ يقي السلوك العرفانيّ، معرفة تنظيريّة وممارسة عمليّة، من

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

صور التيه والضلال والانحراف، التماسًا لتحقيق تهذيب قويم يقود إلى الخلاص وتبرئة الذمّة. ومن جهة أخرى، وتبعًا لذلك، يغدو العرفان ذا بعد عمليّ وفاعليّة وحركيّة تمتدّ من الفرد في صورته اللازمة أو الخاصّة، إلى مجالات الحياة العامّة المستوعبة لما هو اجتماعيّ، وما هو سياسيّ، وما هو علميّ ثقافيّ في بوتقة واحدة، حيث تصبح جميع مجالات حركة الإنسان في هذه الدنيا، سواءً أكانت حركة فرديّة خاصّة ومغرقة في الذاتيّة والخصوصيّة الفرديّة، أم كانت حركة مشاركة علائقيّة، يرتبط فيها الفرد بالآخر، ويتواصل معه في واقعه المعيش.

ذلك كلّه يغدو مستوعبًا ضمن مفهوم كلّيّ وشامل للعرفان، في ما عُبّر عنه بشرط الكمال أو (العرفان الكامل)؛ إذ لا يمكن أن ندّعي تنظيرًا لعرفان إسلاميّ حقيقيّ من دون النظر إليه في بعده الشموليّ والمهيمن، من جانب الاستناد إلى مرجعيّة عقديّة أصيلة تسلّم بإمامة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، ومن جانب شموليّة العرفان واستيعابه الإنسان في أبعاده؛ بحيث لا يمكن أن يستغني عنه في جانب من جوانب الحياة، ولا في أيّ موقعٍ يتحرّك أو يوجد فيه الفرد.

كلمات مفتاحيّة:

العرفان، السير والسلوك، المعرفة الحقّة، الكمال، الوَحْيانيّة، أهل البيت، التديّن المحمّديّ الأصيل، الترشيد، الطهر المعنويّ، الجهاد الأكبر، التهذيب، المراقبة.

مقدّمة:

لا يخرج العرفان في المدرسة الإسلاميّة عن كونه سعيًا نحو صنع البيئة التي يتكامل فيها الإنسان لتحقيق العبودية الحقّة لله -تعالى- في هذه الدنيا، وحيث إنّ هذه العبوديّة تتأسّس على موجّهات غيبيّة تكفّل الوحي ببيانها للبشريّة، أمكننا أن نتبعها بمسلّمة مفادها: أنّ التكامل الحقّ لا يمكن أنْ يتحقّق إلا بشرط إمامة أئمّة أهل البيت عليهم السلام في المعارف الدينيّة، إذ لا إمكانيّة للحديث عن عرفان إسلاميّ من دون الاستناد إلى

إمامة شرعيّة، ومن دون التسليم بالولاية المطلقة للإمامة التي ارتضاها الله -تعالى- للبشريّة في هذه الحياة. وبالنظر إلى حاجة الإنسان في سعيه نحو الكمال إلى قادة ومرشدين يوجّهونه ويعلّمونه ويقَوِّمون تصرّفاته ويدلّونه على عوالم السير والسلوك وأسرارها، وهذا لا يتحقّق إلا في من ارتضاهم الله -تعالى- أمناء على الوحي ومعارفه، وأطلعهم على علومه وتفاصيله؛ لكي يرجع إليهم الناس ويهتدوا بهداهم.

وعلى الرغم من أنّ العرفان قد يبدو للوهلة الأولى اختيارًا ذاتيًّا أو ممارسة فرديّة وشعيرة عينيّة تنطلق من الذات الخاصّة لصاحبها، فإنّ حقيقته تمتدّ نحو إنجاز الفعل في المجتمع، وتتحوّل إلى سلوك يتعدّى قوامه التأثير في المحيط، والعمل على إفادة الآخرين، والتحرّك من أجلهم، ومراقبة تفاصيل الذات؛ لمنع كلّ شرّ أو أذى قد يصدر في حقّ الغير، بل والانتباه إلى كلّ تقصير قد يصدر من الذات في مسؤوليّتها ورسالتها نحو الغير.

لذا؛ فإنّ ثمّة أهمّيّة بالغة يحتلّها العرفان في المنظومة الفكريّة والعقديّة للمدرسة الإماميّة؛ فهو ضرورة من ضروريّات حياة الفرد في المجتمع، وعنصرٌ مركزيٌّ في البناء السليم للمجتمع، وبه قوام الفرد والمجتمع الخاليين من العاهات النفسيّة والروحيّة. فالعرفان مصدر طاقة تتزوّد عبره وبه الذات، روحيًّا ومادّيًّا، ومنه تأخذ ما به تغدو مستحقّة صفة الإنسانيّة، فهو مظهر من مظاهر التعبّد الذي عبّر عنه بعضهم بكونه «أشبه ما يكون بعمليّة التنفّس عند الإنسان... ويعتبر عاملًا ضروريًّا لا غنى عنه لتوثيق الوشائج والصلات الطبيعيّة بين الوعي وبين بيئته الخاصّة... ويعتبر وظيفة طبيعيّة للروح والجسد في آنٍ واحد، حيث لا يمكن الاستغناء عنها أبدًا»[1].

(1) كاريل، ألكسيس: الإنسان ذلك المجهول، تعريب: شفيق أسعد فريد، بيروت، مكتبة المعارف، 1441هـ.ق/ 1993م، ص81.

أولًا: تلازم العرفان الحقّ مع التّديّن المحمّديّ الأصيل:

إذا ما تتبّعنا الأصول الحقيقيّة والجوهريّة التي يؤول إليها العرفان، فلا ريب في أنّ أسسه؛ عقلًا وفطرةً وقلبًا، يجب أنْ ترجع إلى المدرسة الإسلاميّة الأصيلة؛ أي «المدرسة المحمّديّة على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام، بجميع المعاني والدرجات والأبعاد»[1]، بالنظر إلى كون الغاية الأساس من العرفان؛ إنّما هي الدفع بالإنسان نحو حالات الكمال والطهر المعنويّ. روي عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل»[2].

بل إنّ الحياة برمّتها، والوجود على امتداده، لا معنى له ولا قيمة حقيقيّة له إلا في جوهره الإلهيّ، وفي ماهيّته التوحيديّة. فالديانات السماويّة جميعها إنّما تتّحد وتتوحّد في هذا المسعى؛ وهو «إعادة جميع المحسوسات وكلّ العالم إلى مرتبة التوحيد. تلك المرتبة التي يتيقّن فيها العبد ويقتنع عقلًا وقلبًا وجوارح أنْ لا ملجأ ولا منجى ولا غاية إلا الله تعالى، وأنّ «كلّ ما هو موجود فهو منه تعالى، وكلّ ما سيأتي أيضًا هو منه... فكلّ ما هو موجود هو الله»[3].

ولا يخفى أنّ المدرسة الإلهيّة؛ ممثّلة في الأنبياء والرسل والأئمّة الأوصياء عليهم السلام، تتحدّد رسالتها الأساس منذ البدء وإلى نهاية هذا العالم، وتسير في خدمة عقيدة التوحيد، وتحقيق العبوديّة الحقيقيّة لله تعالى، فلا يُتصوّر عرفان ولا تربية ولا تخليق ولا طهر؛ إلا بمرجعيّة مصاديق الطهارة والكمال الحقيقيّ، ممثّلًا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وتحديدًا في رسول الله صلى الله عليه وآله، وأوصيائه الأئمّة الأطهار عليهم السلام؛ الذين لهم ارتباط نَسَبِي بالبيت النبويّ، وكان لهم تبعًا لذلك مسؤوليّات ترشيديّة وتخليقيّة شبيهة

(1) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: الجهاد الأكبر أو جهاد النفس، ط6، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام، 2004، ص9.

(2) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط5، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، 1363هـ.ش، ج1، كتاب فضل العلم، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، ح1، ص32.

(3) الخميني، الجهاد الأكبر، م.س، ص233.

إلى حدٍّ كبير بمسؤوليّات الرسول صلى الله عليه وآله، فهم من يضمن «سلامة الهداية الدينيّة للأمّة الإسلاميّة من الناحية الروحيّة»[1]، وهم وحدهم الذين لهم الأسبقيّة ومركزيّة القدوة، ولهم المرجعيّة في كلّ الأمور، حتّى وُصفوا بأنّهم «عباد مصطفون مطهّرون أورثهم الله علم الكتاب، الذي هو روح أمريٌّ من عالم الأمر وعالم الإبداع (كن فيكون)»[2]؛ بل هم عدل القرآن وقرناؤه، وهم مصاديقُه، والأدلّة عليه، والقادة إلى حقيقته، والعارفون حقًّا به. ويكفي لكلّ عارف أو طالب عرفان هذا البيان الخالد منه صلى الله عليه وآله: «**ألا إنّي مخلِّف فيكم كتاب ربيّ عزّ وجلّ، وعترتي أهل بيتي**، ثمّ أخذ بيد عليّ عليه السلام، فرفعها، فقال: **هذا عليّ مع القرآن، والقرآن مع عليّ، لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض، فاسألوهما ما خلفت فيهما**»[3]. وعن الإمام علي عليه السلام: «**... وما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله علمًا علّمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي، كان أو يكون... إلا علّمنيه وحفظته، ولم أنس حرفًا واحدًا منه...**»[4]. فهم -إذًا- وحدهم المؤهّلون للإحاطة بالعوالم المعرفيّة والعرفانيّة ذات الصلة بمحوريّة القرآن الذي لا يمكن الإحاطة بجميع مراتبه الغيبيّة وبمعانيه العميقة من لدن بني البشر، الذين لا يمكن أن يصلوا أيّ كمال بقدراتهم الحسّيّة، ولا بدّ لهم تبعًا لذلك من «قدرة وحيانيّة» تتجسّد في الأئمّة عليهم السلام المعيّنين بالوحي.

بل إنّ مفارقة هؤلاء والاستغناء عنهم من شأنها أن تقود صاحبها إلى

(1) بل، ألفرد: الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقيّ -من الفتح العربي حتى اليوم-، ترجمه عن الفرنسية: عبد الرحمن بدوي، ط3، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص153-154.

(2) السند البحراني، محمد: إسلام معية الثقلين لا إسلام منسلخًا عن الحديث، ط1، قم، منشورات دار التفسير، 1392هـ.ش، ص32.

(3) العسقلانيّ، ابن حجر: الصواعق المحرقة، خرّج أحاديثه وعلّق حواشيه وقدّم له: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط2، القاهرة، مطبعة القاهرة؛ شركة الطباعة الفنّيّة المتّحدة، 1385هـ.ق/ 1965م، ص126.

(4) الكليني، الكافي، م.س، ج1، كتاب العقل والجهل، باب اختلاف الحديث، ح1، ص64.
وهذا ما شهد به عدد غير قليل من العلماء وكبار الصحابة الأجلاء، ويكفي أن نذكر من ذلك قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: «إنّ القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإنّ عليّ بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن...». (انظر: السيوطي، أبو بكر: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، ط1، بيروت، دار الفكر، 1416هـ.ق/ 1996م، ج2، ص493).

مرديات الزيغ والانحراف. ولعلّ ما يلاحظ على مدارس التصوّف والزهد في العالم الإسلاميّ من تخبّط، وما شاب ويشوب عديدًا من التجارب من انحرافات وأخطاء وتشويه، إنّما مردّه إلى تهميش مرجعيّة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، الذين هم وحدهم دون سواهم، ضمان الأمّة وأمانها من الزيغ والانحراف. روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**... وأهل بيتي أمان لأمّتي، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أمّتي ما يوعدون**»[1].

فلا يمكن تحصيل معارف غيبيّة، ولا إدراك حقائق عالم الروح والمعنى؛ إلا بمرجعيّة أهل البيت عليهم السلام؛ بوصفهم خزّان جميع العلوم، وأبواب جميع المعارف، والعارفين بأسرارها وتفاصيلها، وفيهم «حصر القرآن الكريم الوصول إلى المكنون من حقائقه العلويّة الغيبيّة؛ لأنّهم وحدهم المشهود لهم بالتّطهير الإلهيّ»[2].

وفي الزيارة الجامعة الصغيرة ما يعضد هذه الحقيقة، فيجعل المعرفة الحقيقيّة بالله -تعالى- وبشؤون الغيب وبتفاصيل الكمال والطّهر المعنويّ، ذلك كلّه، متوقّفًا ومشروطًا بمعرفة الأئمّة الأطهار عليهم السلام ذوي الاختصاص والتفرّد بالمعرفة الحقّة، وحفظة الشرع، والقوّامون عليه لهداية البشر وحفظ مصالحهم: «**السلام على محالّ معرفة الله، السلام على مساكن ذكر الله، السلام على مظاهر أمر الله ونهيه، السلام على الدعاة إلى الله، السلام على المستقرّين في مرضاة الله، السلام على الممحّصين في طاعة الله، السلام على الأدلّاء على الله، السلام على الذين من والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد عادى الله ومن عرفهم فقد عرف الله ومن جهلهم فقد جهل الله**»[3].

لذا؛ نجد أنّ الأنبياء والرسل والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام جميعًا، قد

(1) النيسابوري، أبو عبد الله (الحاكم): المستدرك على الصحيحين، إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، لا ط، بيروت، دار المعرفة، لا ت، ج2، ص448.
(2) السند، إسلام معية الثقلين، م.س، ص18.
(3) الكليني، الكافي، م.س، ج4، أبواب الزيارات، باب فضل الزيارات وثوابها، ح2، ص579.

عُدّوا المؤسّسين الأوائل لتيّار الزهد والعرفان والتصوّف في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، الذي كان في حقيقته تطويرًا واستلهامًا لفلسفة الزهد، وتجسيدًا لمبادئ مدرسة هؤلاء الروّاد في العرفان والرياضة النفسيّة. بل إنّ ثمّة من الدارسين مَنْ يرى أنّ رموز المدارس الصوفيّة وكبراءها، هم مجرّد متعلّمين لمبادئ التصوّف والزهد، تتلمذوا على أيدي هؤلاء الروّاد، حيث يبيّن بعض الباحثين مكانةَ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لدى بعض رموز التصوّف، فيقول: «هذا التيار الهائل من النظريّة الصوفيّة برموزه المعروفة؛ بدءاً من الحسن البصري؛ وصولًا إلى رابعة العدوية؛ مرورًا بمحيي الدين بن عربي، والسهروردي، والجُنيد، والرّفاعيّ، والكيلانّي، وغيرهم كثير، قد اعتبروا الإمام (عليًّا بن أبي طالب) أستاذهم الأوحد، واتّخذه العرفاء والمرتاضون وأقطاب التصوّف بطلًا وقدوةً ورمزًا، وعلى هدي علومه ومعارفه أثروا الحضارة العربيّة الإسلاميّة بفيض من الفلسفات والكلام والشعر، لم يعرف مثله في أيّة حضارة أخرى»[1].

وفي السياق نفسه يقول أحد الباحثين في فلسفة الزهد والتصوّف: «الإمام علي بن أبي طالب باب مدينة العلوم[2] والمواهب، كان مزيَّنًا بالزهد والورع، كُشف له الغطاء، وفُضَّت عنه الأستار، وفُتِحَت له كنوز العلم، فنهل منها ما شاء بدون حساب، هو قدوة المتّقين، وقطب العارفين»[3].

فنحن -إذًا- أمام روّاد وُصِفُوا بأنّهم سابقون في العرفان والتصوّف، ومؤسّسون لبنائه، ومن معينهم اغترف الصوفيّة معارفهم ونظريّاتهم، فهم الأنموذج الفعليّ والمصداق العمليّ والتجسيد السلوكيّ لمظاهر الكمال المعنويّ الروحيّ بين الناس في هذا العالم. وقد دلّت الروايات الشريفة

(1) غزاوي، زهير حسين: الإمام علي بن أبي طالب إنسان للمستقبل (القلب والسيف)، ط1، بيروت، دار الهادي، 1424هـ.ق/ 2003م، ص152.

(2) تبعًا للحديث المشهور عن الرسول صلى الله عليه وآله: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم؛ فليأت الباب...**». (المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: يحيى العابدي الزنجاني؛ كاظم الموسوي الميامويي، ط2، بيروت، مؤسّسة الوفاء، 1403هـ.ق/ 1983م، ج38، ص189).

(3) الدرويش، عيد: فلسفة التصوّف في الأديان، ط1، دمشق، دار الفرقد، 2006م، ص165.

وتوصيات الوحي على ضرورة التأسّي بهم، والائتمام بهم، واقتفاء آثارهم في كلّ صغيرة وكبيرة؛ تجنّبًا للزيغ والانحراف، والتماسًا للخلاص والأمن. فعندما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلحّ على الأمّة الإسلاميّة طيلة حياته الدّعويّة، وإلى آخر لحظة من حياته الشريفة، بأنْ تتولّى أوصياءه من أهل بيته الشريف؛ قائلًا: «**تركت فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلّوا بعدي أبدًا**»، «**الله الله في أهل بيتي...**»؛ فهو إنّما كان يشير إلى ضرورة الاحتراز من الغرور والاغترار بالعلم والمعرفة ودعوى الكمال الروحيّ، بعيدًا عن نهجهم وصراطهم القويم؛ ما قد يجعل من صاحبه متوهّمًا امتلاك الحقيقة وحدَه، ووصوله إلى جوهر الدين والتدينّ، واستغناءه عن المرشد والوليّ أو الإمام المعصوم عليه السلام، وبأنّه لا يضعف ولا يعيى، مكتفيًا بمنهج حسبنا أنفسنا وعقولنا عن الوحي، حسبنا كتاب الله عن العترة[1]. إنّه تنبيه مبكّر منه صلى الله عليه وآله وسلم، وتحذير من الوقوع في حالة من الاستغناء عن الإرشاد الوحيانيّ، الذي لا يمكن أن يتخلّله النقص أو التناقض أو المصلحة الخاصّة، والذي يضمن وحده عدم التّيه والضلال أو الانسياق مع موجات التأويل ومتاهات التناقضات البشريّة، التي منشؤها تسلّط الأنانيّات الفرديّة وتوهّم الزعامة والقطبيّة والاستبداد بالرأي، والاغترار بالقدرة الذاتيّة، والثقة في العقل والنفس تحت مسمّى شعار: «حسبنا كتاب الله»!

فلا يُتصوّر عرفان قويم ما لم يتقيّد بهداية الوحي الإلهيّ المتمثّل في الكتاب والسنّة الصحيحة التي تمثّلها العترة الطاهرة عليهم السلام، فهما معًا طريق الهداية والنور والحقّ، وهما وحدهما سبيل تحقيق الغايات الكماليّة التي ارتضاها الله -تعالى- للعباد؛ مصداقًا للحديث المتواتر عند الفريقين: «تركت فيكم ما إنْ تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبدًا؛ كتاب الله، وعترتي أهل بيتي».

(1) السند البحراني، محمد: الغلو والفرق الباطنيّة.. رواة المعارف بين الغلاة والمقصّرة، تحرير: حسن الكاشاني؛ مجتبى الأسكن، ط1، منشورات باقيات، 2011م، ص331.

فقد يكون العرفان والتصوّف طريقًا إلى أنواع من العلوم والمعارف التي قد تخرج عن حدّ الشهود والحسّيّة، فهي آنئذٍ -حتمًا ومنطقًا وعقلًا- تحتاج من صاحبها ومن السالك طريقًا إلى ترشيد المعصوم وتدخّله، وإلا قادته إلى الهلكة والضياع الروحيّ والمعنويّ، ولنْ يكون مأمونًا ولا متيقّنًا أنْ تصبّ في الكمال المرجوّ.

وغير خافٍ أنّ كثيرًا من العلوم والمعارف الروحيّة والأسرار الغيبيّة لا يطيق تحمّلها الإنسان العاديّ، وقد لا يدرك محتواها ولا حقيقتها ولا كيفيّة التصرّف حيالها؛ إلا إذا استند إلى معارف أهل البيت عليهم السلام وتوجيهاتهم. بل إنّ ثمّة من الحقائق والمعارف والدرجات المعرفيّة العرفانيّة ما لا يتحمّله حتّى المقرّب من الملائكة؛ كما جاء على لسان جبرئيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج، لمّا بلغ إلى سدرة المنتهى وانتهى إلى الحجب، فقال: «تقدّم يا رسول الله، ليس لي أن أجوز هذا المكان، ولو دنوت أنملة لاحترقت!»[1]. فكيف للإنسان العادي أنْ يدّعي الاستقلاليّة والاعتماد على ذاته في السير إلى الله وسلوك طريق العرفان الخاصّ، من دون هداية وترشيد دقيق وواضح من الأئمّة عليهم السلام العارفين العالمين بأسرار ذلك؟! مثلما أنّ كثيرًا من العلوم والمعارف المادّيّة نبغ فيها الإنسان وأعطى فيها الشيء الكثير وحقّق إنجازات لم تكن متوقّعة ولا محتملة، لكنّها لم تصبّ سوى في طريق النقيصة والشرور المنافيين لحقيقة الكمال وغاياته المرجوّة.

لذا؛ فإنّ سلوك طريق المعرفة الروحيّة وطريق العرفان يجب أن يكون مؤسّسًا ومحكومًا ومستندًا في تفاصيله إلى معارف الوحي؛ بما هو قرآن وسنّة المعصومين عليهم السلام؛ بوصفه السبيل الأوحد الذي يحقّق «الإحاطة بتمام التكامل للإنسانيّة والآفاق الممكنة لها، وهو أمر لا يحيط

(1) المازندراني، محمد بن علي (ابن شهر آشوب): مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، لا ط، النجف الأشرف، المطبعة الحيدريّة، 1376هـ.ق/ 1956م، ج1، ص155.

به وبتفاصيله العقل البشريّ الفطريّ المحدود، ولا العقل التجريبيّ، ولا العقول الأخرى»[1].

ثانيًا: العرفان وتهذيب النفس:

يمكن أنْ تؤول جميع معاني العرفان وجميع مدلولاته وأبعاده، وجميع تفاصيله، مهما اختلفت المنطلقات والدراسات المنظور منها إليه؛ سواء أكانت مدرسيّة تعريفيّة تبسيطيّة، أم كانت أكاديميّة معمّقة وتخصّصيّة، تبحث في تفاصيل العرفان ومصاديقه؛ فجميع المعاني يمكن أنْ تؤول إلى حقيقة «معرفة الله التي تتوفّر في ظلّها سعادة الدنيا والآخرة»[2].

فالغاية التي سعى وجاهد من أجلها جميع الأنبياء والرسل، وكذا الأولياء والأوصياء والصالحون، لا تخرج في حقيقتها عن هدفيّة واحدة؛ وهي: «تربية الإنسان وهدايته في مسيرته من عالم التراب إلى عالم الملكوت الأعلى»؛ بهدفٍ يتمثّل في «تشكيل المجتمع وإعداد بيئة لا يعبد فيها غير الله تعالى، فتزيل أنوارُ العبوديّة والإخلاص والإيمان بالغيب، ظلمةَ الأهواء النفسانيّة والشهوات الدنيويّة، وتضيء أنظارَ البشريّة بنور جمال الحقّ في عالم الوجود، وتعيد حاكميّة التوحيد وأبعاده المتعالية في مختلف العلاقات والنشاطات الإنسانيّة. ومثل هذا لا يتيسّر إلا بتزكية النفس، الشيء الذي يجهله حكّام الشرق والغرب، ويتعطّش إليه عالم اليوم المنهك»[3]، حيث يكون الإنسان متحرّكًا تحرّكًا عموديًّا في طريق السير والسلوك إلى الحقّ تعالى؛ بهدف الوصول إلى مقام لا يرى في الوجود غيره تعالى.

إنّ العرفان ليس إلا ذلك السعي المخلص من العبد في دنياه من أجل التحرّر من صنميّة الذّات وقهريّة النفس، أو ما يسمّيه السيّد روح الله الموسوي الخمينيّ بالهجرة من النفس إلى الله، حيث يعزم الإنسان

(1) السند، الغلو والفرق الباطنيّة، م.س، ص43.
(2) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: رشحات ملكوتيّة، ط2، بيروت، ، مركز باء للدراسات، 2008م، ص143.
(3) الخمينيّ، الجهاد الأكبر، م.س، ص10.

على الخروج من بيت النفس وظلمانيّتها، وينطلق صادقًا مهاجرًا إلى الله ورسوله، متحرّرًا من أسر الدّنيا والطبيعة وسيطرة النفس والشهوات والغرائز، ومن أنانيّته الضيّقة، إلى مراتب ما يعرف عند العرفانيّين بـ «الموت المطلق» التي لا يعود فيها شيء من أنفسهم[1]، ويتحقّق الابتعاد عن بيت النفس أو بئرها العميقة التي تجعل الإنسان لا يرى إلا نفسه، ولا يقيم وزنًا إلا لها، ولا يفكّر إلا فيها؛ بما يجعل منها «أعدى الأعداء، وهي أسوأ من جميع الأعداء، وأكبر من جميع الأوثان، بل هي أمّ الأوثان؛ لأنّ الإنسان يعبدها أكثر من سائر الأوثان، ويتوجّه إليها أكثر من سائر الأوثان، وما لم يحطّم هذا الوثن فلا يستطيع أنْ يصبح إلهيًّا؛ إذ لا يمكن الجمع بين الله وبين الوثن، ولا يمكن الجمع بين الأنانيّة والإلهيّة»[2].

ولذا وجدنا الإمام الخمينيّ في حركته النهضويّة الإصلاحيّة، يركّز على ضرورة الانتباه إلى هذا الخطر الكبير، وعلى ضرورة المعرفة الدقيقة والواعية بأقرب الأعداء إلى الإنسان؛ وهي النفس التي بين جنبيه، والعمل على مراقبتها وتتبّع أساليبها المتنوّعة في الإيقاع بالإنسان والسقوط به في مدارك الجهالة والظلمانيّة والغفلة عن الحقّ.

يقول الإمام الخمينيّ في إحدى توصياته العرفانيّة: «واعلم أنّ جميع ما يحلّ ببني آدم من مصائب ناشئٌ من الإرث الشيطانيّ؛ فهو أصل الفتنة، وربّما تشير الآية الكريمة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾[3]، في بعض مراحلها ومستوياتها إلى الجهاد الأكبر، وقتال أساس الفتنة؛ وهو الشيطان وجنوده. ولهؤلاء فروع وجذور في أعماق قلوب بني الإنسان كافّة، وعلى كلّ إنسان أن يجاهد حتّى لا تكون فتنة

(1) انظر: الموسويّ الخمينيّ، روح الله: تفسير آية البسملة، ترجمة: عرفان محمود، ط2، بيروت، دار الهادي، 2000م، ص44.
(2) م.ن، ص45-46.
(3) سورة البقرة، الآية 193.

داخل نفسه وخارجها، فإذا حقّق هذا الجهادُ النصرَ؛ صلحت الأمور كافّة وصلح الجميع»[1]. فتكون حقيقة العرفان -إذًا- ماثلةً في السعي المخلص والاجتهاد الواعي نحو تحقيق النصر؛ ولو في بعض مستوياته، على جبهة النفس، عبر التمكّن من الحدّ من الأهواء النفسانيّة. هذه المرحلة تُعدّ شرط كلّ سلوك عرفانيّ، وبداية كلّ حركة نحو إصلاح الحال. فلا يمكن لأيٍّ كان أنْ يدّعي إمكانيّة أنْ يحقّق تطوّرًا على مستوى السير إلى الله والارتقاء في مدارج الكمال؛ ما لم ينجح في تحقيق مستوياتٍ من هذا الانتصار الأوّليّ، وهو في الحقيقة ليس أوّليًّا، بل هو الهدف والغاية من العرفان؛ لأنّ جوهر هذا الأخير أنْ يحقّق العبد التحرّر من حبّ النفس والعجب، والانطلاق في ما يعبّر عنه العرفاء «بالسفر من الخلق إلى الحقّ تعالى، ومن الكثرة إلى الوحدة، ومن الناسوت إلى ما فوق الجبروت»[2].

إنّ حقيقة العرفان هي جوهر تخليقيّ تهذيبيّ محدّد ومشروط بضوابط دينيّة عقديّة، تتجاوز الضوابط العرفيّة أو الاجتماعيّة التي قد تكون في ذاتها تهذيبيّة، لكنّها خارجة عن ضوابط التديّن والاعتقاد الوحيانيّ. والعرفان معرفة عمليّة سلوكيّة تتجاوز المستوى المعرفيّ التنظيريّ الخالص، وهو ذو غاية تهذيبيّة قوامه العمل على إصلاح النفس وتطويعها والارتقاء بها نحو مدارك الكمال والصلاح والطهر المعنويّ؛ بما هي حالة فطريّة في الطبيعة الإنسانيّة؛ لأنّ الغاية العظمى والهدف الأسمى من هذا الوجود؛ إنّما هو تحصيل المعرفة الشهوديّة التي لا يرى العارف فيها أيّ شيء في الوجود سوى الحقّ -تعالى- وأسماءه وصفاته[3].

(1) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: وصايا عرفانيّة، إعداد: عباس نور الدين، ط1، بيروت، مركز بقيّة الله، 1998م، ص85.

(2) م.ن، ص84.

(3) يحاول الشيخ الطوسي- كما ينقل عنه الشيخ حسن زاده آملي- أنْ يقرّب إلى الأفهام هذه المراتب مُمثّلا لها بمراتب معرفة النار؛ فإنّ أدناها من سمع أنّ في الوجود شيئًا يعدم كلّ شيء يلاقيه، ويظهر أثره في كلّ شيء يحاذيه، وأيّ شيء أخذ منه لم ينقص منه شيء، ويسمّى ذلك الموجود نارًا، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله -تعالى- معرفة المقلّدين الذين صدّقوا بالدين من غير معرفة بالحجّة.

ثالثًا: العرفان والعمل:

في مدرسة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام لا ينفصل العرفان عن العمل، ولا يمكن اعتبار ممارسة العرفان والتفرّغ للرياضة النفسيّة بعيدًا عن مقتضيات الحياة ومتطلّبات الكدح اليوميّ؛ ممارسةً عرفانيّة، بل إنّ الاكتفاء بالخلوة، والانعزال للتعبّد، وإعلان الاستقالة الطوعيّة عن مهام الحياة ومتطلّبات الكدح ليُعدّ من صميم الانحراف، ووجهًا من وجوه الزيغ عن سواء السبيل.

إنّ التهذيب الحقيقيّ للنفس، والتطويع الحقّ في سبيل السير السلوكيّ العرفانيّ التامّ، لا يتمّ ولا يتحقّق إلا بكدح حقيقيّ وصبر وجهاد ومثابرة، وباقتحام مجالات الحياة ومواجهة مشاكلها والمساهمة الفاعلة والدؤوبة والجادّة في بناء الحضارة وخدمة الإنسانيّة؛ أي إنّ العرفان يحوز قيمته، مضافًا إلى امتلاك الحالات وتحصيل الملكات النفسانيّة، وتمثّل الأفكار العقليّة والحالات الروحيّة العالية، من سِمَته العمليّة ومن أفعال الإنسان الداخليّة والخارجيّة، ليس في بعدها الذاتيّ الفرديّ المحض، وإنّما من جانب بعدها الاجتماعيّ الحركيّ في المجتمع، والصبر على مشاقّ المواجهة، وليس الفرار أو الركون إلى التي هي أخفّ وأسهل.

ويُعدّ السيّد روح الله الموسويّ الخمينيّ أحد أبرز روّاد النهضة الذين أعادوا للعرفان في الفكر الإسلاميّ المعاصر مفهومه الحقيقيّ، وأعطوه دفعةً جديدةً، أخرجته من دائرة المعارف النظريّة والاصطلاحات الملْغِزة، التي

وأعلى منها مرتبة من وصل إليه دخان النّار وعلم أنّه لا بدّ من مؤثّر، فحكم بذات لها أثر هو الدخان، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله -تعالى- معرفة أهل النظر والاستدلال، الذين حكموا بالبراهين القاطعة على وجود الصانع. وأعلى منها مرتبة من أحسّ بحرارة النار؛ بسبب مجاورتها، وشاهد الموجودات بنورها، وانتفع بذلك الأثر، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله -تعالى سبحانه- معرفة المؤمنين الخُلّص الذين اطمأنّت قلوبهم بالله وتيقّنوا أنّ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ كما وصف به نفسه. وأعلى منها مرتبة من احترق بالنار بكلّيّته وتلاشى فيها بجملته. ونظير هذه المرتبة في معرفة الله -تعالى- معرفة أهل الشهود والفناء في الله، وهي الدرجة العليا والمرتبة القصوى. رزقنا الله الوصول إليها والوقوف عليها بمنّه وكرمه. (انظر: زاده آملي، حسن: السير إلى الله، ط1، بيروت، دار المحجة البيضاء؛ دار الرسول الأكرم، 2001م، ص22).

تراد لذاتها ويتيه الباحث بين مصطلحاتها ومفهوماتها المجرّدة، إلى حقيقة عمليّة سلوكيّة، تحوز قيمتها الحقيقيّة من جانب وظيفتها السلوكيّة، ومن جانب دورها في توجيه الفرد؛ ليكون شخصا تكامليًّا، يسعى نحو التجرّد من أنانيّته وإنّيّته الضيّقة والمهلكة، ويسير في اتّجاه طهرٍ معنويّ روحيّ يتخلّص فيه من نقائص الأخلاق وذميم الفعال في جميع حركاته وسكانه.

فالعرفان يحوز قيمته -إذًا- من جانب فاعليّته الاجتماعيّة؛ بالنظر إلى أنّه يصبح طريقًا موصلًا آلامَ الفرد بآلام الآخرين، وجسرًا لإشراكه في حاجاتهم ومعاناتهم، وجميع منغّصات عيشهم؛ فهو بعبارة الدكتور علي شريعتي: «وسيلة لتلقين النفس، كيف تظلّ على تطلّع دائم إلى الأهداف والطموحات الإنسانيّة السامية»[1].

ولقد تنبّه الإمام الخمينيّ إلى انحراف العرفان عن معناه في ممارسة كثيرين، حينما أشار إلى أنّ «هناك فئة من الناس ظنّوا أنّ معنى العرفان هو أنْ يجد الإنسان محلًّا، ويتلوَ ذكرًا، ويحرّك رأسًا، ويتمايل، وغير ذلك... هذا هو معنى العرفان. إنّ أعلى مراتب العرفان كان يحوزها الإمام عليّ عليه السلام، ولم يكنْ لمثل هذه الأشياء من وجود في سلوكه. لقد تخيّلوا أنّ الشخص العارف يجب أن يعتزل كلّ شيء، ويتنحّى جانبًا، ويتلو ذكرًا، ويتغنّى حينًا، ثمّ يفتح دكّانًا!... إنّ أمير المؤمنين عليه السلام في الوقت نفسه الذي كان فيه أعرف الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الأمّة، وأعرف خلق الله بالحقّ تعالى، مع ذلك فإنّه لم يتنحّ جانبًا، ولم يفعل شيئًا عبثًا. لم يكنْ له في أيّ وقت حلقة ذكر... كان مشغولًا بأعماله. ولكنْ يُتَخَيَّل أنّ أهل السلوك لا شأن لهم بالناس الآخرين، كلّ ما يجري في المدينة فليجرِ، فأنا من أهل السلوك... لأذهب وأجلس في زاوية وأتلو وردًا..! وهذا هو السلوك بحسب قولهم. إنّ السير والسلوك كان في الأنبياء عليهم السلام أكثر من غيرهم، وفي

(1) شريعتي، علي: الدعاء، ترجمة: سعيد علي، ط1، بيروت، دار الأمير للثقافة والعلوم، 1426هـ.ق/ 2006م، ص53.

الأولياء أكثر من غيرهم، لكنّهم (الأنبياء والأولياء) لم يذهبوا إلى بيوتهم ليجلسوا ويقولوا نحن أهل السلوك»[1].

وعلى عكس هذا الفهم والتطبيق غير السلِيمَيْن، فالعرفان الحقّ يمثّله الأئمّة الأطهار عليهم السلام، فهم جميعهم أمثلة ونماذج وقادة في جميع مناحي الحياة الخاصّة والعامّة يجسّدون العرفان الثّوريّ أو عرفان العبادة والتمسّك بالعدالة. لقد كان زهدهم زهدًا ثوريًّا وزهدًا علويًّا؛ من أبرز معانيه «أن تتحمّل الفقر لمكافحة الفقر، وتصبر على الجوع لتكافح الجوع، والتنازل عن الخبز الشخصيّ من أجل توفير خبز الناس، والتنازل عن اللذّات والحياة الشخصيّة، وتخفيف المعيشة، والبساطة، والاستغناء، والاكتفاء بلقمة الخبز والملح، وسدّ جوعه وجوع عائلته بالقليل من أجل إشباع جياع الناس، وتخفيف الحمل؛ لكي ينطلق في خدمة المجتمع دونما إحساس بقيود الحياة الشخصيّة»[2]. وهذا يشير إلى ضرورة جعل العرفان سلوكًا عمليًّا في الممارسة اليوميّة للفرد، وجعله من ضمن تحرّكاته الدنيويّة بين الناس في المجتمع. فهو يتصرّف وفق مقتضيات الاستحضار الدائم للحقّ -تعالى-، والمراقبة الدقيقة لجميع حركاته وسكانه، والمعاينة الموجّهة لكيانه وعقله وجوارحه.

ويشير السيّد محمد باقر الأبطحيّ في تقديمه للصحيفة السجّاديّة، إلى أنّ أدعية الإمام زين العابدين السجاد عليه السلام «كانت ذات وجهين غاية في الارتباط والتكامل: وجهٍ عباديٍّ، وآخر اجتماعيٍّ يتّسق مع مسار الحركة الإصلاحيّة التي قادها الإمام في ذلك الظرف الصعب، فاستطاع بقدرته الفائقة المسدّدة أنْ يمنح أدعيته -إلى جانب روحها التعبّديّة المعطاء- محتوًى اجتماعيًّا متعدّد الجوانب؛ بما ضمَّنها من مفاهيم خصبة وأفكار نابضة بالحياة»[3].

(1) الخمينيّ، رشحات ملكوتيّة، م.س، ص226-227.
(2) شريعتي، الإمام علي في محنه الثلاث (محنة التاريخ- محنة التشيّع- محنة الإنسان)، ترجمة: علي الحسيني، ط1، بيروت، دار الأمير، 2001م، ص158.
(3) الأبطحي، محمد باقر: مقدّمة الصحيفة السجاديّة الجامعة للإمام زين العابدين عليه السلام، بيروت، دار الصفوة، 1992، ص12.

فالإمام زين العابدين عليه السلام على الرغم من المحن الشديدة التي كان يمرّ فيها، وحالة المضايقة والتهميش التي فُرِضَت عليه، وإبعاده عن الناس وإبعاد الناس عنه، وحيلولة السلطة السياسيّة الأمويّة دون القيام بدوره كاملًا في المجتمع... نجد أنّه يثمّر الدعاء والتوسّل والمناجاة، لينخرط في شؤون المجتمع، ويساهم في تربية الناس وتوجيههم وترشيد حركتهم في الحياة، للسير بهم نحو التكامل المطلوب. فكانت الصحيفة السجادية (زبور آل محمد) من أبرز الوثائق التي تثبت حيويّة العرفان الإسلاميّ وفاعليّته، وتؤكّد مدى ارتباطه بالحياة وبهموم الناس والمجتمع، فهي أسلوب مبتكر في إيصال الفكر الإسلاميّ والمفاهيم الإسلاميّة الأصيلة إلى القلوب[1].

وهذا يؤكّد أنّ العرفان وحركة الذكر والدعاء وسلوك المناجاة والتوسّل العرفانّي، ليست أمورًا محدودة قيمتها ووظيفتها في نطاق فرديّ وخاصّ؛ بل هي ممتدّة من أجل تحقيق هدف اجتماعيّ أوسع؛ هو تعليم المرء كيف يكون إنسانًا. فعبره يتمّ تلقين الفرد النشيد الروحيّ الموحي بالعمل الإيجابيّ وبالحركة نحو الآخرين[2]. ولعلّها المرتبة التي تسعى جميع الحركات الإصلاحيّة التي تقوم في المجتمعات من أجل الوصول بالإنسان إليها.

رابعًا: العرفان والعلم:

إنّ الاشتغال بأيّ نوع من أنواع العلوم، لا يمكن أنْ ينفصل عن جوهريّة العرفان؛ مثلما أنّ حالة العرفانيّة لا يمكن أنْ تُنال بالانتساب أو الادّعاء أو المعرفة النظريّة، فمهما تكنْ دقّة المطالب العرفانيّة التي قد يبحث فيها الفرد وقد يتعمّق في تعريفها وتبيينها والاستدلال عليها؛ فلا يمكن لذلك كلّه أنْ يُوجد حقيقة الإنسان العارف؛ ما لم تتجسّد فيه معاني العرفان الحقّ،

(1) انظر: م.ن، ص13.
(2) عثمان، محمد فتحي: الفكر الإسلاميّ والتطوّر، ط1، تونس، دار البراق للنشر، 1990م، ص186.

وما لم يحقّقْها سلوكيًّا في حياته الخاصّة والعامّة، والظاهرة والباطنة. بل إنّ كثيرًا من المفاهيم والمصطلحات إذا ابتغاها الفرد لذاتها ولم يجعل منها وسيلةً إلى إصلاح نفسه وتحقيق العبوديّة الحقّة لله -تعالى- في حياته، قد تغدو وبالًا عليه، ولا تزيد إلا من ظلمانيّته وبُعده عن العرفان الحقّ.

لقد رأى الإمام الخميني أنّ الانشغال بالعلوم «حتّى العرفان والتوحيد، إذا كان لاكتناز الاصطلاحات -وهو حاصل- أو لأجل تلك العلوم؛ فإنّه لا يقرّب السالك من الهدف، بل يبعده عنه (العلم هو الحجاب الأكبر)»[1]. وهذا الأمر نفسه هو ما يوصي به -أيضًا- إحدى الطالبات العارفات (وهي زوجة ابنه السيّد أحمد)، حين سألته أنْ يرشدها إلى أهمّ الكتب العرفانيّة المساعدة في سبيل السير والسلوك، فأجابها: «ابنتي اهتمّي برفع الحجب، لا بجمع الكتب.. (قولي لي) إذا نقلت الكتب العرفانيّة والفلسفيّة من السوق إلى المنزل، من مكان إلى مكان، أو جعلت نفسك مخزنًا للألفاظ والاصطلاحات، وعرضت في المجالس والمحافل ما في جرابك، وخدعت الحُضَّار بمعلوماتك، وزدت ثقل حملك بخداع الشيطان والنفس الأمّارة الأخبث من الشيطان، وأصبحت بلعبة إبليس زينة المجالس، وتبعك -لا سمح الله- غرور العلم والعرفان، وسيفعل، فهل بهذه المحمولات الكثيرة زدت الحجب أم خفّفتها؟!»[2].

فحين ندرك حقيقة العرفان، ونتمثّل جوهريّته في منظومة التفكير عند الإماميّة، فإنّنا ندرك أنّه يجمع بين كونه حالة سلوكيّةً وتجسيدًا تربويًّا قوليًّا وفعليًّا وعقديًّا لمقتضيات الوحي، وسيرًا واعيًا ودقيقًا نحو غايات الشريعة ومقاصدها، وهو تبعًا لذلك، لا يمكن أنْ يغادر فرعًا من فروع الحياة، ولا يمكن أن يُفتقد أو يستغنى عنه في أيّ حركة من حركات الإنسان؛ علنيّةً كانت أم سرّيّةً.

(1) الخمينيّ، وصايا عرفانيّة، م.س، ص110.
(2) م.ن، ص117.

إنّ من مقتضيات شموليّة العرفان وهيمنته، أنّه في مجالات العلم والمعرفة، ومهما يكنْ نوعها وتخصّصها، ومهما تتّخذ المعرفة والبحث العلميّ منحىً محسوسًا وتجريبيًّا، ومهما تكنْ دقّة تخصّصها المادّيّ المحض؛ فإنّها من منظور العرفان يجب أنْ تظلّ مؤطّرة ضمن دائرة التوحيد، وخادمة غايات الكمال والرقيّ المعنويّ، وسببًا للوصول إلى مراتب الطهر والخلاص الروحيّ، مثلما وجب أنْ تكون وسيلةً لخدمة مشروع الحكومة الإلهيّة في الأرض، وطريقًا نحو تأمين سعادة البشريّة والموجودات كلّها؛ في الدنيا والآخرة.

فالمعارف التخصّصيّة الدقيقة في الطبيعيّات، والرياضيّات، والطبّ، والهندسة، وغيرها من العلوم التي لا تكاد تحدّ، ليست مدروسة ولا مطلوبة لذاتها، بل إنّ الإسلام يؤطّرها بالتوحيد، ويرجع الطبيعة بأسرها وجميع الظلال الظلمانيّة إلى ذلك المقام النورانيّ الأخير الذي هو مقام الألوهيّة. فليس للإسلام نظر استقلاليّ للعلوم الطبيعيّة؛ لأنّ العلوم كلّها، وفي أيّ مرتبة كانت، يريد لها الإسلام أنْ تخدم التوحيد، «فما هي إلا ورقة في هذا العالم؛ بل هي أرقّ الأوراق فيه. إنّ العالم من مبدأ الخير المطلق حتّى نهايته موجود حظّه الطبيعيّ نازل جدًّا، وجميع العلوم الطبيعيّة نازلة جدًّا إزاء العلوم الإلهيّة»[1].

ومهما يكن الاقتراب من الدين، أو يكن الاشتغال أو التخصّص في فروع الدين والعقيدة، فإنّ التّحرّك وفق غايات التهذيب والسير في طريق الكمال الروحيّ والطهر المعنويّ، يبقى في مقدّمة الاهتمامات، بل هو الحاكم العامّ والمهيمن على كيان طالب العلم والمعرفة وتفكيره؛ مهما تكنْ دقّة تخصّصه.

وفي كلمته لطلبة العلم في الحوزات العلميّة وللطلبة الجامعيّين

(1) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: صحيفة الإمام، ط1، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني قدس سره، 1430هـ.ق/ 2009م، ج8، ص6.

يخاطبهم الإمام الخمينيّ قائلًا: «فأنتم على علم بمدى التّقدم العلميّ الذي أحرزتموه، وحجم المعارف التي اكتسبتموها في هذا العام الدراسيّ. ولكنْ ما الذي فعلتموه بالنسبة إلى تهذيب الأخلاق، وتزكية النفس، وتحصيل الآداب الشرعيّة والمعارف الإلهيّة؟ أيّة خطوة إيجابيّة خطوتم؟ هل كان لكم برنامج لذلك؟»[1]. بل إنّ الإمام، ومن موقع خبرته ومعاينته الواقع الفعليّ للناس، ليسارع إلى الإجابة الصريحة الواضحة قائلًا: «للأسف لا بدّ لي من القول بأنّكم لم تنجزوا عملًا يستحقّ الذّكر، ولم تقطعوا شوطًا يذكر على طريق إصلاح نفوسكم وتهذيبها»[2].

ويتّضح من هذا الكلام كيف يميّز الإمام بين حقيقة تحصيل العلم والاجتهاد، والمراتب التي يمكن أن يحوزها الإنسان في ذلك، وبين البعد العرفانيّ لطلب العلم؛ وذلك بأنْ يكون طلب العلم وسيلة لتهذيب النفس، وتحصيل الصلاح، والارتقاء التكامليّ في سلَّم الطهر المعنويّ. فطلب العلم في حدّ ذاته لا يمكن أنْ يكون غاية عرفانيّة؛ مهما تكنْ أنواع العلوم المدروسة، ومهما تكنْ تسمياتها ومستوى قربها من العلوم الشرعيّة. فالمدرسة والجامعة والحوزة العلميّة وغيرها من مجالات تحصيل المعرفة والعلوم؛ جميعها مطالبة بأنْ تكون في صميم السلوك العرفانّي، وأنْ تكون مهمّتها تعليم وتعلُّم المسائل الأخلاقيّة والعلوم المعنويّة وتهذيب النفوس وتطهير الروح، لتربية علماء أخلاق وتخريج مربّين ومهذّبين متّقين وربّانيّين؛ أي عرفاء أو عرفانيّين، يُطمأَنُّ إليهم في الفضيلة والأخلاق والصلاح، ويمكن التعويل عليهم في هداية الآخرين وترشيدهم، وفق الطريقة المثلى التي رسمها الوحي، وجسّدها الأئمّة عليهم السلام.

إنّ واجب العالم وطالب العلم أنْ يبتغي من فعله تحصيل آثار العلم وتحقيق صفات الحقّ في النفس، فالمعارف والعلوم؛ مهما سمّيت فقهيّة،

(1) الخمينيّ، الجهاد الأكبر، م.س، ص13.
(2) م.ن، ص13.

أو عقديّة، أو أصوليّة، وحتّى حديثيّة، أو قرآنيّة تفسيريّة، إذا بقيت في مستوى الاصطلاحات والمفاهيم السطحيّة الحاجبة صاحبها عن الحقّ، والتي لا يُرجى منها تغيير في النفس ولا في أحوال صاحبها، هي في حقيقتها ليست بمعارف؛ فحقيقة المعرفة وحقيقة العلم أنْ يكون عرفانًا «يحيل القلب إلى محلّ تتجلّى فيه أسماء الله وصفاته، وينزل فيه السلطان الحقيقيّ الذي يمحو آثار التلوّث... (و)يجعل القلب أحديًّا أحمديًّا»[1].

فأهمّيّة أيّ علم وأيّ فرع من فروع المعرفة في أنْ يُرى مرتبطًا بالعمل، وأنْ يصلح المفاسد الأخلاقيّة، ويهذّب النفوس والعقول، ويوجّه الأفعال والسلوكات، ويتساوى في ذلك عالم الدين المتخصّص في العلوم الشرعيّة، والطالب أو الأستاذ الجامعيّ المتخصّص في قضايا فكريّة، والمنشغل بفروع بحث أكاديميّة، قد تبدو دنيويّة وعصريّة وتقنيّة محضة.

إنّ جوهر العلم بميزان العرفان أنْ تكون معرفة العبد واجتهاده فيه لله -تعالى- وفي سبيله، وأنْ تتحرّك نفسه وجوارحه في هذا السبيل، وأنْ يُخضِع نفسه لمراقبةٍ وتتبّعٍ دقيقين؛ بما يضمن للنفس تخطّي الحجب الظّلمانيّة وتحصيل الأهليّة للدخول في ساحة الرّحمانيّة، وإلا فلا فائدة من العلوم التي يحصّلها الفرد، ولا قيمة لمعارفه ومصطلحاته وكتبه؛ مهما كثرت وتعدّدت عناوينها ومضامينها، فإذا لم يتخلّص الإنسان من الخبائث، «فإنّه مهما درس وتعلّم لنْ يكون علمه مفيدًا، وليس هذا فحسب، بل سيكون مضرًّا. فالعلم عندما يَرِد أرضًا خبيثةً، سوف ينبت نبتًا خبيثًا ويصبح شجرة خبيثة. وكلّما تكدّست هذه المفاهيم في القلب المظلم غير المهذّب، ازدادت الحجب أكثر فأكثر؛ فالعلم في النفس التي لم تتهذّب يكون حجابًا مظلمًا (العلم هو الحجاب الأكبر). ولهذا كان شرّ العالم الفاسد بالنسبة إلى الإسلام أخطر وأعظم من الشرور كلّها»[2].

(1) الخمينيّ، رشحات ملكوتيّة، م.س، ص44.
(2) الخمينيّ، رشحات ملكوتيّة، م.س، ص186.

خامسًا: العرفان والبُعد الاجتماعيّ:

للعرفان في المدرسة الإسلاميّة الأصيلة، وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام تحديدًا، بُعده الاجتماعيّ الضروريّ، بالنظر إلى أنّ لِجوهر التهذيب المراد للنفس جانبين؛ جانب لازم ذو علقة بذات الفرد في خلوتها تعبّدًا وتنسّكًا واعتقادًا وشعائر فرديةً، يكمله جانب آخر ذو بعد اجتماعيّ، من حيث إنّ حقيقة كمال الفرد لا يمكن أن تتحقّق ما لم يحز كمالًا في المجتمع، ومن جانب علاقته بالآخرين، فعلاقة المسلم بغيره علاقة عضويّة تنشد التكامل[1].

إنّ العرفان الحقّ تبدو أولى ثمراته الطيّبة حين يقتنع روّاده بأنّ قيمته الحقيقيّة تكمن في الانشغال بالواقع وبحاجات الناس وبهمومهم، وفي مشاركتهم نوائب الدهر ومكاره العيش. كما يؤمن المنهج العرفانيّ الحقّ بأنّ الغاية الإنسانيّة الكبرى ليست في عزلتها ولا في تمتيع الذات الفردية بما تطلبه وترغب فيه؛ بل في تجسيد قيم الخير والصلاح في المجتمع، وفي القدرة على الخروج من سجن الذات الضيّق والانفتاح على الآخرين، وتحقيق المجتمع المتآلف السائر نحو الوحدة المجسِّدة لمظاهر التوحيد. وهي العلاقة التي يتوجّب أنْ يأمن فيها الآخر من جميع شرور الذات ونقائصها، وبالمقابل يتحصّل منها المنفعة والخير والمساعدة والنفع بجميع أصنافه.

وهكذا يكون العرفان في بُعده الاجتماعيّ منضويًا تحت حقيقة: «**المسلم من سلم الناس من يده ولسانه**»[2]، فلا يتملّكه العجب ولا التكبّر، ولا يفرح بمديح، ولا يبخل بمعروف، ولا يؤذي أحدًا في حضور أو غياب، فحقيقة العرفان الاجتماعيّ أنْ يُرى الإنسانُ إنسانًا حقيقيًّا، يَرى الناس كلّهم أحباءه، ويبادر إلى حسن التواصل معهم؛ لأنّهم عيال الله: «**والخلق كلّهم عيالك**»[3].

---

(1) فضل، عبد الرزاق محمد محمود: في بلاغة الدعاء النبويّ، منشورات دعوة الحق، العدد181، 1محرم 1418هـ.ق/ 8ماي 1987م ، ص62.

(2) المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س، ج64، ص60.

(3) الطوسي، محمد بن الحسن: مصباح المتهجّد، ط1، بيروت، مؤسّسة فقه الشيعة، 1411هـ.ق/ 1991م، ص592.

وفي نظام الإسلام الأصيل لا يوجد أحد يمكن أنْ يدّعي أنّه غير معنيٍّ بشؤون المجتمع؛ كما يشير السيّد الخامنئيّ في بعض كلماته: «يجب على الجميع أنْ يشعروا بأنّهم مكلّفون بالنسبة إلى مصير المجتمع، وأنْ يبحثوا عن تكليفهم»[1]، فلا يمكن للمجتمع أنْ يرتقي نحو مدارج الكمال الروحيّ والفكريّ، ولا يمكن تحقيق السعادة الإنسانيّة، ولا توفّر أجواء من الأمن والأمان؛ ما لم يكن الجانب الاجتماعيّ في الأمّة سالكًا سبلَ النهوض الأخلاقي والتربية الروحيّة المتكاملة.

بل إنّ ممارسة الشعائر التعبّديّة على صورتها الصحيحة، ووفق فلسفتها العميقة المتواشجة مع فلسفة الدين الحقّ، ومع مراميه الحضاريّة الخالدة، وأغراضه الإنسانيّة الرحبة، تغدو من أهمّ مقوّمات البناء السليم للمجتمع القويم وعناصره الأساس.

إنّ العبادات جميعها، لا تنفصل عن غاياتها الاجتماعيّة ومراميها البنائيّة. فمثلما أنّ الصلاة مطلوبة في المساجد مع الجماعة؛ ترسيخًا لمبدأ التواصل والتلاقي المستمرّ بين المصلّين، وتفعيلًا لمبادئ التساوي والتكافؤ بين الأفراد، ودرءًا لأحاسيس الفوقيّة والتكبّر ومشاعر العلوّ، وكذلك الزكاة فهي فريضة تؤخذ من الأغنياء وتردّ إلى الفقراء، والحجّ يُعدّ مهرجانًا سنويًّا وعالميًّا للمسلمين، يتشاورون في ما بينهم ويتدارسون شؤون دينهم ودنياهم، ويمارسون طقوسه بشكل موحّد؛ إشعارًا بتساويهم وتشابههم في حقيقة إنسانيّتهم، والصوم عبادة جوهرها تحقيق التواصل بين الأفراد وتنمية روح الإحساس بالجائعين والمحرومين من أبناء المجتمع.

يقول الإمـام علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيّته لابنيه عليهما السلام: «**... وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا وللمَظْلُوم عَونًا... أُوصِيكُمَا، وجَمِيع وُلْدِي وأَهْلِي ومَن بَلَغَه كِتَابِي، بِتَقْوى الله ونظْم أَمْرِكُم، وصَلَاح ذَاتِ بَيْنِكُم،**

(1) الخامنئيّ، عليّ: أنوار الولاية، ط1، بيروت، مركز بقيّة الله الأعظم، 1999م، ص58.

فإنّي سَمعت جَدّكما ﷺ يقول: صَلاَح ذَات البَيْن أَفْضَل مِن عَامّة الصَّلاة وَالصِّيام. الله الله في الأَيْتَام، فَلاَ تَغبُّوا أَفْوَاهَهم، ولاَ يَضيعُوا بِحَضْرَتكُم. والله الله في جِيرَانكُم، فإِنَّهُم وَصِيَّة نَبِيّكُم... وعَلَيْكُم بالتَّوَاصُل والتَّبَاذل، وإِيّاكُم والتَّدَابر والتَّقَاطُع»[1].

ويوجّهنا الإمام السجاد عليه السلام من خلال مقطع دعائيّ مختصر إلى هذا العمق الاجتماعيّ للتعبّد والذِكْر والعرفان، وهو أنْ يدرك الإنسان واجباته الإنسانيّة تجاه الآخرين، ويُدرك حجم مسؤوليّته ضمن المحيط الذي يتواجد فيه: «**اللّهم إني أَعتَذرُ إِليْك مِن مَظلُوم ظُلم بِحضْرتِي فلم أَنصُرْه، ومِن معْرُوفٍ أُسدِيَ إليَّ فَلمْ أَشكُرْه، ومِن مُسِيءٍ اعتَذرَ إِليَّ فلم أَعذُرْه، ومن ذِي فَاقةٍ سألَنِي فلَم أُوثِرْه، ومن حقِّ ذِي حقٍّ لزمِنِي لمؤمن فلم أُوَفِّرْه، ومن عَيبٍ ظهَر لِي فلمْ أَسْتُرْه**»[2].

فهو يضعنا أمام صور رائعة من صور الأنموذجيّة ونكران الذات مطلوبًا أن تتحقّق في الفرد العاديّ، وفي المسؤول أو القدوة تجاه الغير؛ نصرته إنْ ظلم، وشكره على المعروف، والتماس العذر إليه في الخطأ، وقضاء حاجاته، وتأدية الحقوق إليه. وهذه في الحقيقة أخلاق تُستمدّ من الأخلاق الرفيعة التي أقرّها الإسلام، وحاول الأئمّة الهاشميّون ترسيخها؛ قولًا وسلوكًا. فالإنسان في حقيقته مُطالبٌ بأنْ يكون تجلّيًا من تجلّيات الرحمة الإلهيّة في الأرض، حيث يرتقي الفرد إلى مستوى الإنسان الأنموذج، أو «الإنسان الربّانيّ»، أو «الإنسان الكامل»[3].

---

(1) العلويّ، محمد (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: محمد عبده، ط1، مطبعة النهضة؛ دار الذخائر، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ج3، وصيّة47، ص76-77.

(2) الصحيفة السجاديّة، م.س، ص166.

(3) انظر:

- الطباطبائيّ، بحر العلوم مهدي بن السيد مرتضى: رسالة السير والسلوك، تعريب: عبد الرحيم مبارك، لا ط، بيروت، دار المحجة البيضاء، لا ت، ص37.

- الطباطبائيّ، محمد حسين: عرفان النفس، جمع وتحقيق: قاسم الهاشمي، ط1، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، 1423ه.ق/ 2002م، ص112-153.

وفق هذه الامتدادات يغدو العرفان نهجًا تواصليًّا فاعلًا حائزًا سمته الاجتماعيّة الواضحة؛ بوصفه مدرسة تعلّم الناس أسس العلاقة التكامليّة بين بعضهم بعضًا، في طريق بناء المجتمع السليم والقوي والمتآلف؛ لأنّ أساسه ترسيخ العقيدة في نفوس الناس، وتوجيه اهتمامات الإنسان نحو إصلاح العلاقة بينه وبين الله أولًا، ثمّ الانطلاق لإقامة علاقات متميّزة ومتينة بين أفراد المجتمع، ومن ثمّة إمكانيّة الحديث عن فرص النجاح والتميّز في جميع المجالات والصعد؛ لأنّ الإنسان الصالح يبقى هو المحور وقطب الرحى في ذلك كلّه.

سادسًا: العرفان والبُعد السياسيّ:

يُعدّ المجال السياسيّ من أهمّ المجالات التي تمتدّ إليها دلالات العرفان في المدرسة المحمّديّة الأصيلة، بل إنّ السياسة لتتموضع في مقدّمة القضايا التي تستوجب تجسيد حقيقة العرفان وتطبيق مبادئه الصحيحة، فلا مجال لمقولة إنّ «السياسة هي فنّ الكذب»، ولا لمقولة «في السياسة إنّ الغاية تبرّر الوسيلة»، ولا لمقولة «السياسة أمّ المصالح تدور معها حيث دارت سلبًا أو إيجابًا»، وغيرها من المقولات التي هي في الحقيقة مجرّد إفراز من إفرازات الاحتكام إلى إملاءات المناهج الوضعيّة العلمانية في تدبير الشأن العامّ. وعلى العكس من ذلك تمامًا، فإنّ السياسة من منظار المنهج العرفانيّ هي من أكثر المجالات حاجة إلى التخليق، وممارسة الشأن العام، وتحمّل مسؤوليّة الناس في المجتمع، والسهر على قضاء حاجاتهم، وتمكينهم من حقوقهم، وقيادتهم نحو سبل تنفيذ واجباتهم، تجاه أنفسهم وتجاه الآخرين ومجتمعهم، وتعريفهم بواجباتهم تجاه خالقهم؛ إنّ جميع هذه الأمور، وما يتفرّع عنها، لهي بحقّ أحوج ما تكون إلى رؤية عرفانيّة دقيقة وحقيقيّة، حتّى تؤتي السياسة أُكلها، وتثمر نتائج إيجابيّة في المجتمع البشريّ، وإلا كانت وبالًا على العباد، وقادتهم نحو متاهات الانحراف والفساد والتيه على جميع الأصعدة. وتبعًا

لهذا المدلول الإيجابيّ للعرفان، وتأسيسا له؛ وجدنا أنّ الإمام روح الله الخمينيّ ينتقد بشدّة تلكم الفئات والتوجّهات التي كانت تؤمن بوجود مسافة ما بين العرفان والسياسة، وترى إمكانيّة الاعتزال والبُعد عن الواقع السياسيّ لممارسة التعبّد، وتنفيذ البرامج الترويضيّة للنفس؛ طلبًا للكمال الروحيّ. فقد رأى أنّ العرفان الحقيقيّ لا يناقض ولا يبرّر لصاحبه ومدّعيه الابتعاد عن الانخراط في السياسة، والدخول في شؤون المجتمع، وتحمّل المسؤوليّات السياسيّة والاجتماعيّة، فاعتبر أنّه «لا الاعتزال الصوفيّ دليل الارتباط بالحقّ، ولا الدخول في المجتمع وتشكيل الحكومة شاهد الانفصال عن الحقّ»[1].

وفي هذا الصدد يمكن أنْ نعتبر هذه الرؤية المؤسّسة لعرفان حضاريّ إيجابيّ مشارك في الحياة وممارس لدوره بين الناس، بمنزلة ردٍّ على رؤى سلبيّة تبنّتها كثيرٌ من التوجّهات في العالم العربيّ والإسلاميّ، التي اعتقدت أنّ العرفان «هو في جانب منه موقف من العالم، موقف نفسيّ وفكريّ ووجوديّ؛ لا بل موقف عامّ من العالم، يشمل الحياة والسلوك والمصير. والطابع العامّ الذي يسم هذا الموقف هو الانزواء والهروب من العالم، والتّشكّي من وضعيّة الإنسان فيه»[2]. ورأت أنّ الموقف العرفانّي كان دائمًا موقف هروب من عالم الواقع إلى عالم العقل المستقيل، كلّما اشتدّت وطأة الواقع على الفرد الذي لا يعرف كيف يتجاوز فرديّته، ويجعل من قضيّته الشخصيّة قضيّة جماعيّة، وإنْ لزم الأمر قضيّة إنسانيّة[3].

مثل هذا الموقف السلبيّ من العرفان راجع إلى تطبيقاته الخاطئة في تجارب عديدة في المجتمع العربيّ الإسلاميّ. ولذلك، فإنّ ما طرحه الإمام الخمينيّ إنّما كان يهدف إلى تصحيح هذه النظرة، وإعادة العرفان إلى سكّته الصحيحة؛ بوصفه مساهمة تربويّة وجوهرًا تخليقيًّا غايته ضبط

(1) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: بلسم الروح، ترجمة: حسين كوراني، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، 1991م، ص17.

(2) الجابري، محمد عابد: بنية العقل العربيّ... دراسة تحليلية لنظم المعرفة في الثقافة العربيّة، ط2، المركز الثقافيّ العربيّ، 1991م، ص 255.

(3) الجابري، بنية العقل العربي، م.س، ص259.

السلوك العامّ للفرد في الحياة، وهو النهج الذي تحكّم في الأنبياء والرسل والعرفاء الصالحين عبر التاريخ، فقد كانوا بشرًا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويتزوّجون وينجبون، وينظّمون أحوال الناس في المجتمع، ويقيمون أسسه، ويقودون الجيوش...

ففي مجال السياسة تزداد حتميّة السلوك العرفانيّ. والإنسان في نهاية المطاف معنيّ ومطالب بتجسيد حقيقة العبوديّة لله -تعالى- في أيّ مجال من مجالات الحياة؛ بما فيها الحياة السياسيّة. و»إذا أراد السالك أن تكون تسميته حقيقيّة، فلا بدّ له من أنْ يوصل مراحم الحقّ -تعالى- إلى قلبه، ويتحقّق بالرّحمانيّة والرّحيميّة، وعلامة ذلك حصول نموذج منها في القلب أنّه ينظر إلى عباد الله بنظر العناية والتلطيف، ويطلب الخير والصلاح للجميع، وهذا هو نظر الأنبياء العظام والأولياء والكُمّل عليهم السلام»[1]. وهذا ما يستفاد من كتاب أمير المؤمنين إلى أحد أمرائه وولاته على الأمصار: «**أَمَا بَعْد، فَإن حَقًّا عَلَى الوَالِي أَلاّ يُغَيّرَه عَلى رَعِيته فَضْلٌ نَالَه، وَلاَ طولٌ خُصَّ به، وأَنْ يَزِيدَه مَا قَسَم الله لَهُ مِنْ نِعَمه دُنُوًا من عِباده وعَطْفًا عَلى إِخْوانه**»[2].

فالعرفان حقيقة عمليّة، وهو في هذا السياق الخاصّ، عمل سياسيّ يقتضي التجسيد الفعليّ في مؤسّسات ونظم مدنيّة، وفي ممارسات وتطبيقات الناس. ومن ثمّة لا تبقى حقيقة كلمة «عرفانيّ»، أو «دينيّ»، أو «وحيانيّ»، وما اشتقّ منها أو ارتبط بها، محصورةً في ما هو غيبيّ روحانيّ معنويّ محضّ؛ بل إنّها تتّسع ليصبح العرفان ذا مدلول يبلوره الاجتماع المدنيّ كلّه، في السياسة، والاقتصاد، والثقافة، وغيرها من المجالات، ليكتسب العرفان روحًا جديدة تستوعب الاجتهاد الإنسانيّ الفكريّ والمادّيّ، بما هو دين ودنيا، وحْي وعقل، روح ومدنيّة، تربية وحضارة، فيغدو العرفان مدرسة بانية للإنسان والمجتمع المدنيّ، ومظهرًا عمليًّا

(1) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: الآداب المعنويّة للصلاة، عرّبه عن الفارسيّة وشرحه وعلّق عليه: أحمد الفهري، قم، مؤسّسة دار الكتاب الإسلاميّ، لا ت، ص390.
(2) الشريف الرضي، نهج البلاغة، م.س، ج3، كتاب50، ص79.

للمدرسة الإسلاميّة الأصيلة القائمة على الجمع بين المظهرين المادّيّ والمعنويّ، الدينيّ والدنيويّ، خادمة لمشروع إقامة الحكومة الإلهيّة المنشودة؛ بوصفها -وفق تعبير الإمام الخميني- «ظاهرة إلهيّة، يُؤَمِّن العمل بها سعادة أبنائها في الدنيا والآخرة، بأفضل وجه»[1]. والإسلام على خلاف المدارس غير التوحيدية؛ يتدخّل في جميع الشؤون الفرديّة والاجتماعيّة، والمادّيّة والمعنويّة، والثقافيّة والسياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة، ويشرف عليها. وهو لم يهمل أيّ تفصيل؛ ولو كانت صغيرًا جدًّا، طالما أنّ له دخالة في تربية الإنسان والمجتمع، وتقدّمه المادّيّ والمعنويّ. وقد نبّه بشدّة على الموانع والمشكلات التي تعترض طريق التكامل في المجتمع والفرد، وعمل على رفعها[2]. فمعنى العرفان الحقيقيّ يقود دومًا إلى بناء الدولة الإلهيّة، ويسعى إلى تحقيق المجتمع الإسلاميّ الحقيقيّ الذي يجسّد العدالة الإلهيّة ويؤسّس الرحمة والمحبّة بين الناس.

(1) الموسويّ الخمينيّ، روح الله: الوصيّة الخالدة، بيروت، نشر مكتب وكلاء الإمام الخميني، لا ت، ص21.
(2) م.ن، ص22.

خاتمة:

لقد بدا العرفان في المدرسة الإسلاميّة؛ مشروطًا بمرجعيّته الإماميّة، وسيلةً للحفاظ على الرسالة أو التجربة الإسلاميّة، وطريقًا لتحصينها ضدّ متاهات التردّي والانحراف، وهو نهج ومدرسة للحفاظ على «المقياس العقائديّ والرساليّ في المجتمع الإسلاميّ»[1]، فهو في حقيقته توجيه ومتابعة تفصيليّة متواصلة ومستمرّة، يوجّه الإنسان من أجل أنْ يكون فردًا صالحًا في المجتمع، ويسوقه نحو بناء المجتمع الصالح، استنادًا إلى تعميق الرسالة فكريًّا وعقديًّا وسياسيًّا في الأمّة نفسها؛ «بغية إيجاد تحصين كافٍ في صفوفها، لكي يؤثّر هذا التحصين في مناعتها، وفي عدم انهيارها»[2].

إنّ العرفان وفق ما سبق يغدو ممارسة، بقدر ما هو سلوك فرديّ واختيار أحاديّ أو لازم، يمثّل حالةً تخليقيّةً تعبّديّةً، يؤطّر الفردُ نفسه داخلها. وهو -أيضًا- ممارسة اجتماعيّة نافعة، وفعلٌ تربويٌّ بانٍ يساهم في بناء المجتمع القويم والمتماسك، وله آثاره الخارجيّة التي تساهم في نفع الناس، وتحصيل الصلاح العامّ، وترفع لواء الله، والولاء المطلق لأوامره، من أجل علاقة أنموذجيّة بين الناس في المجتمع، وهو أبرز مظهر من مظاهر الفاعليّة الاجتماعيّة، فهو ينهض برسالة متعدّدة الأوجه والتجلّيات، تستوعب في مضمونه، الجانب السياسيَّ، والاجتماعيَّ، والعلميَّ، والثقافيَّ، وكلَّ ما يساهم في إقامة المجتمع، الذي تصان فيه إنسانيّة الإنسان، ويحقّق تكامله المعنويّ. فيكون له دوره الفعّال في تحسيس الفرد بحقيقة إنسانيّته، وسوقه لإدراك نظام العالم مادّيًّا ومعنويًّا.

(1) الصدر، محمد باقر: أهل البيت عليهم السلام.. تنوّع أدوار ووحدة هدف، بيروت، دار التعارف، لا ت، ص144.

(2) م.ن، ص131.